# حنّا أبو حنّا

## رحلة الأدب والسياسة والمقاومة

أجرى المقابلة: **سليم تماري**؛
**منير فخر الدين**؛ **مهند عبد الحميد**

**انغرست فيه اللغة العربية منذ أن التحق بـ "الكُتّاب"، أحبّ لغة القرآن ولم يحبّ طريقة المشايخ في التعليم، قال: "يجب ألاّ نربّي عبيداً"، وطبّق ذلك مع أجيال متعاقبة. انغرست فيه الوطنية منذ عهد الطفولة، عندما كان يلقي حبوب "الكرسنّة" مع أترابه تحت أرجل خيل المستعمرين الإنجليز ويزحلقونها. أفلت من قيود الأيديولوجيا، وغلّب العقل على رأي المركز، والنقد على التبعية، والإبداع على التقليد. تلقّى الروح الثورية من مربّين ومعلمين، ونقل تجربتهم إلى تلاميذه بشكل خلاّق. حارب على جبهة التربية باقتدار، وحارب على الجبهة الثقافية بعنفوان شبابي ظل متقداً على الرغم من مرور الزمن. احتضن الشعراء والكتّاب الجدد وعلّمهم "ترابية القصيدة".. إنه الشاعر المبدع حنا أبو حنا الذي أجرت معه "مجلة الدراسات الفلسطينية" الحوار التالي.**

# البدايـات

## "أين الحل يـا شاطر؟"

■ **ماذا عن البدايات؛ مولدك، ودراستك، وظروف عيشك الأولى؟**

□ ولدتُ في سنة ١٩٢٨ في قرية الرينة التي تبعد عن الناصرة ٥ كيلومترات. مهنة أبي جعلتني كثير الترحال، فوالدي كان مسّاح أراضٍ ينتقل من بلد إلى آخر. عشت طفولتي في القدس في "حي الطور"، ثم انتقلنا إلى رام الله وكان عمري خمسة أعوام تقريباً، فبير زيت، وبعدها إلى أسدود التي لم يكن فيها مدرسة، وإنما كُتّاب أرسلني أبي إليه كي أتعلم.

انتقلنا من أسدود إلى قرية نَجد القريبة من أسدود، وهناك علّمني والدي القراءة في سلسلة كتاب القراءة "الجديد" لخليل السكاكيني، وأنهيت الجزء الثالث.

كما تعرّفنا على عادة اجتماعية سيئة تدعى "ختان البنات" لم يسمع بها أهلي من قبل على الرغم من طوافهم الواسع في البلد.

بعد ذلك انتقلنا إلى حيفا، وتدخّل معلم قريب من عائلتي اسمه حنا إبراهيم، وطلب من المدير أن يختبرني كي أتمكن من الالتحاق بالمدرسة. أعطاني المدير جزأين من سلسلة "الجديد" قرأت فيهما بسهولة وثقة، لكن عندما جاء اختبار الحساب لم أتمكّن من الإجابة عن أي من الأسئلة لأني لم أتعلّم الموضوع، بل لم أسمع به سابقاً، وبدأت أتعلّمه في الصف الثاني. بعد شهرين انتقلنا إلى الناصرة، وكان الدخول إلى المدرسة هناك عسيراً. قيل لأبي: لا مجال بعد بدء العام الدراسي، لكن والدي ذهب إلى منزل المدير بعد الظهر فوجده يجلس القرفصاء وهو يُبَيِّت (يحيك) لحافاً. جرى حوار طويل قال فيه والدي: "أنا كما تعلم موظف في دائرة المساحة، والآن نُقلت إلى الناصرة. قُل لهم ألاّ ينقلونا في منتصف السنة!" أخيراً لان المدير وقَبلَني. قال والدي لأمي: "أُحرِج المدير لمّا رأَيته مقرفصاً يُبَيِّت اللّحف، فقَبِلَه في المدرسة." هكذا فسرت الذكورية الظالمةُ الأمر!

دخلت المدرسة. الغرف واسعة، وعلى الجدران أبيات من الشعر كُتبت بخط جميل. أذكر بيت الشعر الذي كان على أحد جدران صفي:

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيَت
فإن هُمُ ذَهَبَت أخلاقُهُمْ ذهبوا

بعد شهر انتقلنا من الناصرة إلى الرينة، وكان منزل والدي في الرينة الجديدة التي بُنيت بعد أن تهدمت الرينة القديمة في زلزال سنة ١٩٢٧. في البلدة القديمة مدرستان ابتدائيتان: مدرسة المعارف وفيها غرفتان ومدخل وأربعة صفوف يدرّس فيها المدير ومعلم آخر. أمّا المدرسة الثانية فهي مدرسة اللاتين، وهي قريبة جداً من السابقة وتتألف

من عَقد (غرفة فيها قناطر) كبير فيه مقاعد طويلة تشغلها خمسة صفوف يدرّس فيها المعلم فيليب من بيت ساحور، كأنه قائد فرقة موسيقية، وكان في إمكان التلميذ أن يشارك في الإجابة عن أسئلة صف أعلى. لكن المصيبة كانت في درس التعليم المسيحي الذي كان عبارة عن حفظ أسئلة وأجوبة في موضوعات بعيدة عن إدراك الطفل، مثل: "ما هي الأقانيم؟ الأقانيم ثلاثة: الآب والابن والروح القُدُس"، فإذا لم تحفظ العديد من هذه الأسئلة كانت عبقرية الخوري تبدع مجموعة من العقوبات: أبسط عقاب كان الركوع في زاوية الليوان المجاور للصف ورفع اليدين طوال مدة العقاب، لكن إذا ارتفع رصيد عدم الحفظ يكون الركوع على الحصى، وقد يكون العقاب الضرب بالعصا على كفّ اليدين، وربما يرتقي الأمر إلى الضرب على عُقَد الأصابع. كم غبطنا الإخوة المسلمين الذين أُعفوا من هذا الدرس!

## أوتونوميا تربوية يهودية

■ **هل كان هنالك نظام تعليمي خاص بالعرب وآخر خاص باليهود في ظل الانتداب؟**

□ نعم، كان لليهود "أوتونوميا"، بل حرية تامة في التعليم والثقافة، وهم الذين كانوا يقررون المناهج التعليمية التي يريدون. اهتم اليهود منذ البداية بالتعليم فأنشأوا "الجامعة العبرية" التي جرى تدشينها في سنة ١٩٢٥ في مدينة القدس، وكان قد تم تشييد معهد العلوم التطبيقية "التخنيون" في حيفا في سنة ١٩٢٤. وشهدنا في تلك الفترة نظام المدارس الخاص باليهود واستقلاليته، والمدارس الأهلية والمدارس الحكومية، علاوة على المدارس الخاصة التي تحتاج إلى رخصة من سلطات الانتداب. وهناك مدارس كانت تعلّم باللغة الإنجليزية مثل كلية "تراسنتا" في القدس، و"المدرسة العليا للبنات" (English High School) في حيفا، ولم يكن هناك مدارس عربية ثانوية كاملة تتيح الاجتياز إلى التعليم الجامعي، سوى بضع مدارس في مدينة القدس ومدرسة الفرندز في رام الله، أمّا المدارس التي سُميت "ثانوية" فكانت تنتهي بالصف الثاني الثانوي، ومدة المرحلة التعليمية كانت تسعة أعوام، غير أن الالتحاق بالجامعة يحتاج إلى الحصول على شهادة "المتريكيوليشن" بعد أحد عشر عاماً تعليمياً (عامان + الأعوام التسعة للمرحلة التعليمية). وكان طلبة من حيفا والجليل يسافرون إلى لبنان للتعلم، فذلك أسهل وأرخص من سفرهم للدراسة في القدس، إذ لم يكن هنالك مدارس ثانوية كاملة، أو مدارس ابتدائية كاملة في أغلب البلدات، بل إن جلّ مدارس المعارف في القرى كان لا يزيد عن أربعة صفوف، ولم يكن هناك مدارس معارف للبنات في أكثر القرى. كانت هذه سياسة الانتداب البريطاني المسؤول عن التعليم.

■ **المنهاج الإسرائيلي الذي ساد بعد النكبة هل استهدف صهينة التعليم العربي؟ وما علاقة ذلك بالصراع الثقافي؟**

□ لنميّز أولاً بين الصهينة والعبرنة: فالعبرنة تعني تعليم جميع الدروس في المدارس العربية باللغة العبرية فقط، أي اغتيال اللغة العربية. هكذا فكّر بن ـ غوريون، ودعا عدداً من الخبراء لبحث ذلك وهم: سولومون الذي عُيّن آنذاك مديراً للمعارف العربية؛ بن أور نائبه؛ ميخائيل أساف محرر جريدة "اليوم" المفروضة على المعلمين والجماهير العربية. وفي الكتاب العبري الذي عنوانه "سكان ثانويون"، بقلم عوزي بن زيمن وعطا الله منصور (تل أبيب: كتِر، ١٩٩٢)، في الصفحة ١٤٤ وما بعدها، تفصيل لمواقف المشاركين في البحث في عدد من الجلسات، والوصول إلى نتيجة فحواها أن الأمر لن يفلح.

أمّا الصهينة فهي بث الروح الصهيونية في الطلاب والمعلمين العرب، وفي الجمهور العربي عامة لتبنّي مقولاتها. هذا ما سعت له وزارة المعارف في كتب المدنيات والتاريخ، وما يتعلمه التلميذ العربي في دروس اللغة العبرية، أمّا الذروة فكانت في الاحتفالات بعيد استقلال إسرائيل، إذ يكرَّس شهران تقريباً من الأيام الدراسية لهذه الاحتفالات، فيحفظ التلاميذ أناشيد لهذا العيد أبدعها بعض المعلمين العرب، ولا ننسى صحف الحائط والمحاضرات والزينات. وبالتالي يكون التعليم معطلاً، والاحتفال بالعيد حافلاً بالزينة والأناشيد.

اقترنت هذه الصهينة بإشراف "الاستخبارات" على سلوك المعلمين وخضوعهم، والذي عرفته أن لممثل هذه السلطة مقعداً دائماً في مكتب المعارف العربية.

وكان لي تجربة مريرة يوم تحدثتُ إلى مجموعة من المعلمين عندنا (فلسطين ٤٨)، واكتشفت أنهم لا يعرفون كيف كانت حالنا وحال الأدب لدينا قبل النكبة. تذكرت أن ذلك كان قبل أكثر من ستين عاماً، وأن هؤلاء المعلمين، بالنسبة إلى عمرهم، بعيدون عن تلك البدايات، لكنهم لم يسعوا لأن يعرفوا!!. قلت إذا كانت هذه الحال عندنا هنا فكيف تكون عند إخوتنا في مواقع أُخرى؟

وأنتهز الفرصة هنا لأقدم شهادة عن تلك المرحلة بأسلوب البرقيات الذي عرفناه نحن المسنين:

● الفلسطينيون الذين بقوا في الوطن متشبثين بالأرض بعد عاصفة الاقتلاع العرقي الصهيونية في سنة ١٩٤٨، كانوا ٦٠,٠٠٠ نسمة تقريباً في الجليل، والبقية الضئيلة في حيفا وعكا ويافا واللد والرملة.

في السنة التالية (١٩٤٩) تنازل الملك عبد الله، فيما عُرف باتفاقية رودس، عن "المثلث"، فأصبحنا معاً ١٦٠,٠٠٠ نسمة تقريباً.

معاناتنا ممعنة في المأسوية: حكم عسكري يقيّد الحركة بتصريح من مكتب الحاكم العسكري، ولذلك فإن الذي لجأ في أثناء الحرب إلى بلدة أُخرى لا يستطيع أن يعود إلى بلدته، بل أصبح لاجئاً في "الداخل"، يرى بيته يُنسَف وأرضه تصادَر وتقام عليها مستعمرات لقوم قادمين من شتى أنحاء العالم، وذلك بناء على القوانين التي تسلب الأراضي بمختلف الأسماء.

انقطعت الصلة الثقافية بالعالم العربي، فلا كتب تصل، ولا صحف. كما أن القليلين الذين بقوا في المدن العربية التي كانت مراكز للثقافة والصحافة والحياة الاقتصادية مثل

يافا وحيفا، باتوا يعيشون في غيتو، وحياتهم مقيدة بتصاريح عسكرية.

أمّا الذين حاولوا العودة إلى بلداتهم عبر الحدود فاعتُبروا "متسللين": منهم مَن قُتلوا بدم بارد، ومنهم مَن حوصروا في بيوتهم وحُمّلوا في شاحنات تقذف بهم وراء الحدود. القرى الباقية في الجليل متناثرة، لكن متضافرة مع مَن بقي في حيفا وعكا على الرغم من عسر الاتصال والتواصل. ويزعق الحاكمون ويخططون لـ "تهويد الجليل".

يرنّ في الخاطر صوت الشاعر أبي تمّام:

"لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ"، لكن الجراح تصيح: بل أنتِ أنتِ!

● وجوه النكبة عديدة ومنها نكبة الثقافة والأدب، إذ دفعت المأساة بالعديد من رجال الثقافة والأدب إلى مجاهل اللجوء:

ـ الشاعران أبي سلمى وحسن البحيري شُرّدا من حيفا؛ سميرة عزام وغسان كنفاني شُرّدا من عكا؛ وديع البستاني لم يبق في بيته الجميل في حيفا إلاّ قليلاً.. والقائمة تطول.

ـ المطابع والمكتبات نُهبت، والصحف والمجلات اختفت، وبعض الكتب أُعدم.

ـ بقي عدد من الشعراء والكتّاب لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليدين، وجلّهم في مطلع مسيرتهم الأدبية.

ـ شنّت السلطة هجوماً كثيفاً على الساحتين الثقافية والأدبية:

أ ـ الغاية غسل الأدمغة وترويض النفوس على الأسرلة: تذويت الخنوع واللاحَول.

ب ـ شنّ هجوم على المعلمين والتعليم: يدرس بن ـ غوريون مع ثلاثة من "المستشرقين" اليهود إمكان عبرنة التعليم العربي، وإلغاء اللغة العربية في المدارس.

ج ـ البدء بحملة ضد المعلمين الذين يكنّون الولاء لبلدهم فلسطين. فالأستاذ الذي علّم تلاميذه في يافة الناصرة النشيد الذي كتبه الشاعر حليم دمّوس فُصل من سلك التعليم ليكون مصيره عبرة لمَن يعتبر.

ومطلع هذا النشيد:

عليك مني السلام
يا أرض أجدادي
ففيك طاب المقام
وطاب إنشادي
في عيد استقلال بلادي
غرّد الطير الشادي

د ـ الشروع في حملة فصل المعلمين الوطنيين الأساسيين، وتعيين "معلمين" يعلنون الخنوع في مدارس تفرض على التلاميذ أن تتحول دروسهم إلى استعداد للاحتفال بعيد استقلال إسرائيل.

هـ ـ اتساع الحملة المنظمة فتُصدر السلطة صحيفة يومية اسمها "اليوم" يُلزَم المعلمون جميعهم بالاشتراك فيها.

و ـ إصدار صحيفة نقابية اسمها "حقيقة الأمر"، وصحيفة أدبية اسمها "الهدف"، وصحيفة للتلاميذ، وإنشاء دار للنشر اسمها "دار النشر العربي" تنشر الكتب التي تلبي غاياتها.

ويشترك في هذا الهجوم "الثقافي" حزب صهيوني يساري اسمه "مبام" أصدر صحيفة اسمها "المرصاد"، ومجلة اسمها "الفجر"، وأنشأ داراً للنشر تصدر كتباً أدبية. وهذا الحزب من مؤسسي "البالماخ"، وهي وحدة النخبة في الهاغاناه، ومن هذا الحزب عُيّن أول حاكم عسكري على الناصرة.

## الكلية العربية والنشاط السياسي

■ **حدثنا عن تجربتك في الكلية العربية وكيف تبلور وعيك السياسي في تلك الفترة. هل انطلقت تجربتك السياسية من هناك؟**

□ لم يتبلور وعيي السياسي في الكلية العربية، لكن طفولتي وظروف حياتي منذ البدء كانت حاضنة لوعيي السياسي.

عندما كنت في الثامنة من عمري وكنت في الصف الرابع الابتدائي في الناصرة، انطلقت ثورة ١٩٣٦، وكان الإضراب الذي استمر ستة أشهر، ثم بدأت مقاومة مسلحة ضد الانتداب والمشروع الصهيوني. وكان والدي في ذلك الحين قد تشارك في اقتناء فرس مع قائد فصيل في الثورة، وكنت أسمع حديثه مع والدي عن الثورة. وفي المدرسة كان طلاب القسم الثانوي، مثل صليبا خميس، ينظمون التظاهرات، وكنا نحن صغار السن نشترك فيها بإلقاء حبوب "الكرسنّة" على الأسفلت أمام الخيول التي يركبها البوليس الإنجليزي لتتزحلق، وكنا نشعر بفرح كبير عند حدوث ذلك. وأذكر طالبة اسمها مسرّة من مدرسة البنات كانت ممّن يقود التظاهرات وهي تنشد:

هذا الوطن حقٌّ لَهُ
أن يُفتَدَى بالدِّما والمُهَج
عارٌ علينا أن ننام
ونُضيعَ مجداً لم يُصَنْ

هُبُّوا ولَو ذُ قنا الحِمام

بالرّوحِ نَفدي بالرّوحِ
نفدي هذا الوطن

تعرّض الطلاب الذين قادوا التظاهرات للاعتقال والضرب العنيف، وعشنا في أجواء الثورة ثلاثة أعوام كاملة. وعندما كنت في الصف السادس التحق بالتعليم ثلاثة أساتذة من خريجي الكلية العربية في القدس، هم: رشدي شاهين (من نابلس)؛ جمال سكران (من الرينه)؛ فؤاد خوري (من يافة الناصرة). هؤلاء الثلاثة وغيرهم كانوا يبثّون فينا الروح الوطنية، ويعلموننا أناشيد وطنية كنا ننشدها في الرحلات منها:

هذي رؤوس الروابي
أضحى يواريها السحاب
والشمس كالتِّبرِ المُذاب
فلَنَمْش لا نخشى الصِّعاب
ولترتعد من أَصواتنا
شُمُّ الهُضبِ الرواسي

فَلنَسِرْ ولنَسِرْ

إن دماءَ الجدودِ
ممزوجةٌ في ذا التراب
إنّا على تلك العهود
فلنَمشِ لا نخشى الصِّعاب
ولترتعد من أَصواتنا
شُمُّ الهُضبِ الرواسي

فَلنَسِرْ ولنَسِرْ

ساهم هؤلاء المعلمون وطلبة الثانوية والأحداث المتلاحقة وأجواء الثورة في إطلاق وعي وطني لجيلي، وكان لهم دور بارز في إثراء الأفق الثقافي والتوعية الوطنية، إذ حفظنا قصائد إبراهيم طوقان، وشعر أحمد شوقي، وقصيدة بشارة الخوري (الأخطل

الصغير) "جهاد فلسطين" (ولم يكن أي منها مقرراً في البرنامج الرسمي). كما كان لهؤلا المعلمين دور مهم في رعاية ندوة أدبية للطلاب مرة كل أسبوعين، وتشجيع الجيل الناشئ على المشاركة في النقاش والكتابة وإلقاء الشعر. وقد أسسوا مكتبة لكل صف، علاوة على المكتبة العامة، وذلك باشتراك مالي شهري ضئيل من الطلاب لشراء تلك الكتب، وكان للمطالعة حصة أسبوعية، وهكذا أصبحت فاكهة المطالعة غذاء ثقافياً دائماً لنا.

لم تحتمل إدارة المعارف الانتدابية نشاط هؤلاء المعلمين الثلاثة فنَفَت رشدي شاهين وفؤاد خوري إلى الخليل، وجمال سكران إلى نابلس.

كانت الكلية العربية على جبل المكبّر في القدس تقبل الطالب المتفوق من كل مدرسة من مدارس المعارف الثانوية في فلسطين. وبعد إنهائي الصف الثاني الثانوي في المدرسة الثانوية في الناصرة التحقتُ بالكلية العربية في سنة ١٩٤٣، ويمكن القول إن الكلية تشكلت من تجمّع فلسطيني من كل أنحاء البلد، كما كان معنا بعثة أردنية (ذوقان الهنداوي؛ محمد نوري شفيق عثمان). وقد قُسّم الطلاب إلى فرعين: العلمي والأدبي، وكان علينا أن نتعلم لغة جديدة: اللغة اللاتينية. والدراسة في الصفين الثالث الثانوي والرابع الثانوي كانت تُعدّ الطالب لإنهاء الدراسة الثانوية، وتقديم امتحان الاجتياز إلى الدراسة الجامعية "متريكيوليشن".

وكان أمام الراغبين في متابعة الدراسة في الكلية صفان آخران هما الخامس الثانوي والسادس الثانوي اللذان (كانا) يُعدّان لامتحان "الإنترميديت" وإجازة التعليم في المدارس الثانوية. أنهيت السادس الثانوي وحصلت على بعثة من دائرة المعارف لمتابعة الدراسة في جامعة بريطانية بدءاً من سنة ١٩٤٨، لكن النكبة التي اختارت ذلك التاريخ وظروفاً أُخرى (ذكرتُها في "مَهر البومة" . الجزء الثاني من سيرتي الذاتية) شاءت أن تكون النتائج مغايرة لما كنت أرغب فيه.

وعُرف عن طلاب الكلية العربية أنهم لا يشاركون في النشاط السياسي، لكن في سنة ١٩٤٦ عندما رجع جمال الحسيني من منفاه في سيشل، أُعدّ له احتفال كبير في المسجد الأقصى. وفوجئنا في صباح ذلك اليوم ببعض المناشير على باب الكلية تعتب على طلاب الكلية لأنهم لا يشاركون في أي نشاط سياسي، وتطالبهم بالمشاركة، فاستجبنا: منذر الفاهوم وأسعد يوسف نصر وأنا، وكنا عرفاء صفوف. أخرجنا الطلاب من الصفوف قبل بداية الدروس ونحن جميعاً ننشد: "نحن جند الله شبان البلاد / نكره الظلم ونأبى الاضطهاد". وكان هناك "مسؤول عن النظام" (لقبه الضابط) صاح مهدداً: "كل مَن يخطو خارج البوابة لن يرجع"، وغادر. مضينا في المقدمة ننشد ثم نظرنا خلفنا فإذا جند الله ثلاثة فقط!!

إلاّ إننا استطعنا بعد حين أن نحقق للكلية وطلابها انتصاراً كبيراً بالتخلص من هذا "الضابط" الـ "مسؤول عن النظام"، وقد تضافرت جهود كثيرين حتى اختفى من دون أن يصدر بيان أو إيضاح، لكن النتيجة كانت (إذا استعرنا مصطلحاً من أيامنا) إلغاء الحكم العسكري بعد أن عانى جرّاءه الطلاب أعواماً!

يقول الدكتور نقولا زيادة في مقالة عن "الكلية": "[....] لكن فخري كان يتصرف كأنه يبحث عن مذنب كي يُوقّع عليه العقاب، كمَن له سلطة في هذه الناحية. كنت أنا شخصياً أمانع في وجود منصب ضابط للكلية أصلاً

(كان هذا شائعاً في المدارس المصرية يومها)، وقد اقترحت مرات على المدير أن يلغي المنصب بالمرة، لكنه لم يُلَبِّ طلبي" (نقولا زيادة، "دار المعلمين بالقدس ـ تاريخ وذكريات"، في: محمد يوسف نجم، إعداد وتحرير، "دار المعلمين والكلية العربية في بيت المقدس"، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٧، ص ١٣١ ـ ١٣٢).

**■ هل كانت سياسة الكلية تمنعكم من المشاركة في مثل هذا النشاط؟**

□ لعل ما ورد في كتاب: هالة السكاكيني (إعداد)، "كذا أنا يا دنيا، يوميات خليل السكاكيني" (القدس: المطبعة التجارية، ١٩٥٥، ص ١٨٩ ـ ١٩٠)، يلقي ضوءاً على الإجابة عن هذا السؤال، إذ جاء أن الكلية العربية انبثقت من "دار المعلمين" التي أُنشئت في القدس منذ العام الدراسي ١٩١٨، ووُلدت في سنة ١٩٢٧. وكان أول مدير للدار الأستاذ خليل السكاكيني الأديب والمربي المعروف الذي أطلق للطلاب الحرية، واستنهض هممهم، وعوّدهم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، وأنشأ لهم جمعية للمحاضرات ومجلة اسمها "الجوزاء"، لكنه استقال من هذه الوظيفة في سنة ١٩٢٠ احتجاجاً على تعيين هربرت صموئيل الصهيوني الهوى مندوباً سامياً لفلسطين.

تسلّم الإدارة بعده الأستاذ خليل طوطح خريجُ كلية المعلمين في جامعة كولومبيا، لكنه "أُقيل بعد إضراب الطلاب إثر قدوم اللورد بلفور إلى القدس [صاحب الوعد المشهور] بمناسبة افتتاح الجامعة العبرية" في القدس في سنة ١٩٢٥ (نجم، مصدر سبق ذكره، ص ٧١)، ثم فُصل الأستاذ جورج معمّر الذي "نُحِّي عن عمله في الدار مع درويش الحاج إبراهيم (المقدادي) وجلال زريق قبل نهاية العام الدراسي [١٩٢٤ ـ ١٩٢٥] بتهمة تشجيع الطلاب على الإضراب بسبب قدوم اللورد بلفور إلى القدس، ١٩٢٥، لحضور افتتاح الجامعة العبرية" (المصدر نفسه، ص ٨٢).

هذا هو الموقف الرسمي الذي رسخ وأبقى زمام الأمر في يد المسؤول البريطاني، وكان آخر مدير بريطاني للمعارف هو المستر فَرِل، وإليه كان مرجع الأمور.

لكن لا بد هنا من الإشارة إلى أن بعض المعلمين مثل نقولا زيادة وعبد الحافظ كمال اللذين كانا ينظمان لنا رحلات في العامَين الأخيرين من دراستي (في الصفَّين الخامس الثانوي والسادس الثانوي)، كانا يشددان على رحلات مشي بعيدة لترسخ فينا محبة الوطن، وكانا في بعض الأحيان يطلقان تعليقاً عابراً نفهمه ونقدّره. ولا أنسى الدكتور إسحاق موسى الحسيني الذي وجّهنا إلى كتابة أبحاث عن التراث الفلسطيني، فكتبتُ عن الشاعر أبي اسحاق الغزّيّ (١٠٤٩ ـ ١١٣٠م)، ثم أقام "معرض الكتاب الفلسطيني" في النادي الأورثوذكسي في القدس (١٩٤٦) وكان تجربة مهمة في ترسيخ توثيق التراث الثقافي الفلسطيني.

## تجربة العمل الحزبي

**■ حدثنا عن تجربتك ودورك من داخل الحزب الشيوعي وخارجه، فإذا كان تقويم الحزب للمشروع الصهيوني على أنه مشروع كولونيالي، أو جزء من المشروع الإمبريالي في المنطقة، فكيف تعايشت مع هذا الموقف الملتبس؟**

□ في الصفين الخامس الثانوي والسادس الثانوي درسنا مع المرحوم الدكتور جورج حوراني الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية، ثم انتقلنا إلى الفلسفة في أوروبا: كانتْ (Kant) وديكارت (Descartes) وآخرون، وأطلق البعض على ذلك التراث اسم الفلسفة "الميتافيزيقية" / المثالية، وقد تمتعت بالرحلة في تلك الآفاق حتى كان مجيء صليبا خميس إلى الرينة حيث خبّأ عندي حقيبتين وضع فيهما كتبه الماركسية خشية من "جيش الإنقاذ".

في ذلك المساء فتحت واحدة من الحقيبتين فإذا فيها العديد من كتب ماركس وإنجلز بالإنجليزية وكتاب رسائل بينهما، وكان هناك بعض الروايات الروسية. أقبلت على القراءة بِنَهم، وكلما اتسعت القراءة زاد طلب المزيد. باختصار: تبنّيت الرؤية نظرياً وفيها التشديد على النضال الطبقي لا النضال القومي، لكن معركتنا قومية.. ولم أكن قد انتسبت إلى العصبة بعد. والشاعر عبد الرحيم محمود هو صديق صليبا والعصبة، وكان ضابطاً في "جيش الإنقاذ" يخوض النضال القومي بالسلاح مع ذلك الجيش، وهو الذي كفل أعضاء العصبة أمام حاكم ذلك الجيش فأطلقهم في اليوم الذي استشهد فيه في "معركة الشجرة".

تعمقت في دراسة الماركسية والمادية الديالكتيكية وتاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، وأقبلت على قراءة الأدب الروسي والسوفياتي. إنه السعي لبناء عالم عادل يكون الانتقال فيه إلى مجتمع يعمل فيه الإنسان قدر طاقته، وينال قدر حاجته.

ومع الاحتلال الإسرائيلي، لم يعد في الساحة أي تنظيم سياسي سوى "العصبة"، وكان عدد أعضائها أقل من ثلاثين. سعيت لإنشاء تنظيم للشبيبة من الطلاب اللاجئين من حيفا وطبرية وبيسان وقد صعقتهم الأحداث وتحطمت حياتهم: كيف حدثت النكبة؟ ما الذي يمكنهم فعله في هذه الأوضاع؟ كل ما كان في حياتهم دُمّر. الأسئلة حادة. وشاركهم طلاب من الناصرة أنهوا الصف الثاني الثانوي. برحيل الانتداب انتهى عهد الدراسة لامتحان الاجتياز "المتريكيوليشن"، لكن كان لا يزال في البلاد بقايا لـ "المجلس الثقافي البريطاني"، فجرى الترتيب معهم على أن يكملوا الدراسة لتقديم امتحان الشهادة البريطانية GCE. التعليم كله باللغة الإنجليزية، ولذا أقمنا لهم صفّين وبدأ التعليم بجدية ومسؤولية. لكن الدراسة لم تغطِّ المطلوب كله، إذ توجه إلينا الطلاب بالأسئلة التي تجثم على صدورهم وأحلامهم، وكان علينا ـ نحن المعلمين ـ أن نجيب!! كانت الملاحظة الأولى: هل نحن شعب لا يعرف التنظيم؟ أليس علينا مسؤولية الآن لنحمي حياتنا ونشارك في الدفاع عن شعبنا؟ من هنا كان السعي للتنظيم. بعد لقاءات ونقاش طويل وصلوا إلى ضرورة إقامة تنظيم للشبيبة يشارك في أمور حياة شعبنا. هكذا نشأ "اتحاد الشبيبة الديمقراطية" في الناصرة، وأُقِرّ له دستور، وكان هو العماد في التظاهرة التي بادر إليها مع عدد من طلاب المدرسة الثانوية في الناصرة احتجاجاً على تطويق الحارة الشرقية في الناصرة، وجَمْع مَن سُمّوا "متسللين"، وهم العائدون إلى بيوتهم لكنهم لا يحملون هويات إسرائيلية. وحدث مرة أن حُمل مثل هؤلاء "المتسللين" في سيارات نقلت البعض إلى لبنان، والبعض الآخر إلى جنين!! وفي تلك المرة جاء عدد من أعضاء الشبيبة إلى المدرسة الثانوية حيث كنت أعلّم (وكنت

المعلم المناوب في ذلك اليوم، إذ كان المدير غائباً)، وتوزّعوا على غرف الصفوف، وكانوا قد أعدّوا كلمة للطلاب تدعوهم إلى تظاهرة احتجاج على تشريد أهلهم. بعد ربع ساعة تقريباً كان الطلاب منطلقين إلى السوق التي أضربت، كما أن المدارس الأُخرى شاركت في التظاهرة التي شملت المدينة، فتوقفت عملية التشريد. أحس أعضاء الشبيبة بالانتصار وبأهمية التنظيم! لكننا نحن المعلمين جميعاً، من دون استثناء، تلقينا دعوة من الحاكم العسكري لمقابلته في اليوم التالي. هناك كان التهديد والوعيد: "أنتم لا تعرفون أنكم تعيشون في ظروف أحكام الطوارئ حيث كل السلطات بيد الحاكم العسكري"... ومضى في التهديد بغضبِ مَن له سلطان. وسأل إن كان أحد يود أن يقول شيئاً، قلنا نحن، المربين، نعتبر هذا التهديد إهانة، وتستطيع أن تفعل ما تريد. قال: "سترَون!" وكان القرار فصل جميع معلمي المدرسة الثانوية من التعليم من دون استثناء. بانتهاء العام الدراسي ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ كنت في بودابست في "مهرجان الشباب العالمي"، ثم مؤتمر الطلاب العالمي في صوفيا / بلغاريا في ذلك الصيف، وعندما عدت وجدت رسالة الفصل وزملائي يبحثون عن وسيلة للعودة. أمّا أستاذي وزميلي الأستاذ فؤاد خوري وأنا فلم نسعَ للعودة.

قبلتُ دعوة مدير المدرسة الثانوية في كيبوتس "مزرع" لتعليم الصفّين الأول الثانوي والثاني الثانوي اللغة العربية والإنجليزية، وفي آخر العام الدراسي أعطيت طلاب الصف الثانوي الأول تمارين للترجمة من العربية إلى العبرية، وكان منها هذه الجملة البسيطة: "نحن نحب السلام، بن ـ غوريون لا يحب السلام." في اليوم التالي دعاني المدير وقال لي: قد يكون ما في الجملة صحيحاً، لكن يصعب على طلابنا أن يسمعوا ذلك من عربي!! قلت له: "سأهوِّن الأمر عليك: هذه استقالتي!"

سعيت لإنشاء فروع لـ "اتحاد الشبيبة الديمقراطية" في القرى المجاورة للناصرة، وأنشأت مع الصديق الموسيقار ميشال درملكنيان "جوقة الطليعة"، وكتبت لها الأناشيد التي حفظها كثيرون. وكان الهاجس دائماً هو كيف يمكن أن تتسع الحركة لتصبح قطرية؟ هناك حاجة إلى موارد ومؤسسات. عندما اتحدت "عصبة التحرر" مع الحزب الشيوعي الإسرائيلي في أواخر سنة ١٩٤٨ توجه إليّ صليبا مقترحاً انضمام "الشبيبة الديمقراطية" إلى "اتحاد الشبيبة الشيوعية"، وعُقد اجتماع حضرتُه وتحدث فيه صليبا. كان الرأيان أن نضالنا سيكون أقوى إذا تضامن معنا رفاق يهود ضد الحكم العسكري والاضطهاد القومي، وقد حاز هذا الرأي تأييد الأغلبية.

كان الحكم العسكري، وطرد العائدين إلى بيوتهم بتهمة "التسلل"، وحرمان لاجئي العديد من القرى من البقاء في بلداتهم وبيوتهم، عبارة عن معركة قومية يسندنا فيها رفاق يهود. وكانت المأساة أن نجد بعض المدجنين الذين ينتمون إلى شعبنا، يخدم السلطة ويشي بإخوانه العائدين إلى بيوتهم. وعندما أصبح بعضهم أعضاء برلمان في حزب السلطة كانوا يدعمون بقاء الحكم العسكري، ويصوّتون لاستمرار اضطهاد شعبهم، بينما يؤيد برلمانيون يهود إلغاء هذا الحكم الجائر.

وكان لنا أصدقاء وطنيون مخلصون لم يكن لهم إطار أو تنظيم، فكان صوتهم مجرد إثبات وجود، ولم يتجاوز إلى العمل،

بينما كان الشيوعيون يشاركون في المعركة المباشرة ضد الترحيل وضد قوانين سلب الأراضي، ويدفعون الثمن سجناً أو نفياً أو منع تصاريح التنقل وفقدان العمل. وجرى فيما بعد تجربة إقامة جبهة يشترك فيها الشيوعيون والقوميون في النضال الوطني، لكنها لم تعش طويلاً، وفي مرحلة لاحقة قامت "حركة الأرض" التي حاربتها السلطة بعنف ومنعت وجودها.

وأفلحت السلطة في تجنيد عميل كبير قاوم الحزب الشيوعي بادعاء أن أعضاءه كُفّار، ولم يكتفِ بذلك بل وصل إلى الجريمة أيضاً، فقد أنشأ "كتيبة كشافة" تحرق أندية الحزب الشيوعي في الناصرة وشفا عمرو، وتسعى لحرق لطفي زريق سكرتير فرع الحزب الشيوعي في عيلبون، لكن المصادفة حولت وجه المأساة إلى أخيه سهيل الذي كان نائماً في سرير أخيه في تلك الليلة التي غاب فيها أخوه عن القرية، فسكبوا عليه البنزين من الشباك وأشعلوا النار فاحترق سهيل. وقامت هذه العصابة باغتيال رجل في الناصرة لإثارة صراع طائفي هناك. وكان هذا العميل يلبس مسوح الكهنوت في أعلى المراتب فهو "مطران": المطران حكيم رئيس طائفة، لكنه انتسب إلى الهستدروت (نقابة العمال العبرية) وحمل بطاقة عضويتها، وبعد جريمة حرق سهيل زريق افتُضِح أمره واستنكرته الطائفة فرحل.

هكذا مارستُ النشاط الوطني مع "عصبة التحرر"، ومنظمة الشبيبة التي أنشأتها وحملت اسم الشيوعية. واتسع النشاط لإنشاء فروع للشبيبة في الرينة وكفر كنّا وطُرعان، ووصل إلى الشمال إلى البُقيعة وترشيحا والرامة وعكا، ثم إلى المثلث، حتى أصبح التنظيم قطرياً.

شيئاً فشيئاً رأيت أن جهدي يجب أن ينصبّ على بناء التنظيم، فكنت أنتقل من بلد إلى آخر. ولأن المواصلات لم تكن متيسرة آنذاك، فقد كان عليّ أن أبيت في تلك القرى حيث الفروع فتتحول "السهرة" إلى حلقة نقاش سياسي، الأمر الذي كان يُثري نمو الفرع. كما كنت أعمل في تلك المرحلة محرراً في جريدة "الاتحاد"، وكان في لجنة التحرير: توفيق طوبي؛ إميل حبيبي؛ إميل توما؛ صليبا خميس؛ جبرا نقولا؛ محمد خاص؛ علي عاشور؛ سمير مارد (وهو رفيق يهودي جاء شيوعياً من العراق وكان يكتب القصة بالعربية، ثم غادَرَنا ليصبح من أبرز كتاب الرواية بالعبرية واسمه سامي ميخائيل).

في سنة ١٩٥٤ دُعيت إلى حضور مؤتمر الشبيبة الشيوعية السوفياتية (الكُمسُمول) في موسكو، ومعي سكرتير اللجنة المركزية عوزي بورشتاين. حضرت المؤتمر باهتمام، وفي اليوم التالي لانتهائه دُعينا إلى لقاء مع أعضاء من اللجنة المركزية للكُمْسُمول، وكان السؤال عن انطباعاتنا بشأن المؤتمر. أشاد عوزي بكل ما رأى، والواقع أن كل شيء كان منظماً ومدروساً بدقة، والبيانات التي قدمها المندوبون كانت مدروسة وكلها إيجابية. ولما سُئلت عن رأيي في المؤتمر، أشدت بالتنظيم وبالأهداف المقررة في شتى الميادين، ثم قلت: لكني لم أسمع نقداً أو نقداً ذاتياً، وهما، كما رأى غدانوف منظّر الحزب، سبيل الانتقال "اللين" غير العنيف من الاشتراكية إلى الشيوعية. قالوا: "إن النقد حدث في الخلايا والاجتماعات الداخلية"، قلت: عدد أعضاء الكمسمول ثلاثون مليوناً، لكن عدد الشباب في الاتحاد السوفياتي قد يكون مئة مليون، فإذا سمع هؤلاء أن المنظمة تنتقد ما ينتقدونه وتناقش ذلك

وتسعى لتداركه أحسوا بالأمل والثقة بأنهم يرقون إلى مرحلة أعلى. إن النقد والنقد الذاتي قائمان في العديد من الدول الرأسمالية حيث تقوم المعارضة بالانتقاد الشديد سواء في قاعة البرلمان، أو في الصحافة. قالوا: نحن لا نتعلم من الدول الرأسمالية. كان عوزي يحاول أن يمنعني من الاستمرار في هذا النقاش بصورة غير مباشرة عبر الضغط على قدمي كإشارة إلى عدم موافقته، وعندما عدنا عاتبني لأنني لم أستشره، وكان ردي واضحاً أنني أتحدث إلى الهيئة العليا المسؤولة، ولا مكان للاستشارة. بعد يومين دُعيت إلى إلقاء محاضرتين في راديو موسكو باللغة العربية فقلت لعوزي: يبدو أنهم أكثر استعداداً منك لسماع الانتقاد. إلاّ إنني سمعت بعض "الأمور غير المشجعة" عن الحال هناك من المترجِمة إلى العربية، وهي البروفسور كلثوم عودة بنت الناصرة. كثرت عليّ أسئلتي لذاتي بشأن المقروء والموجود، أو الموجود والمنشود.

## الشيوعيون والقومية.. والانشقاق

بعد ثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ في مصر وتسلّم عبد الناصر السلطة هاجمه الحزب الشيوعي، ثم أصبح الموقف منه إيجابياً بعد توطد علاقته بالاتحاد السوفياتي. الرسالة الأساسية هي أننا جزء من القومية العربية. مرحلة عبد الناصر كانت مرحلة انتشاء لنا، عندما كان يتحدث عبد الناصر كان الناس ينتظرون خطبه ويسمعونها بشغف غير مسبوق.

رأيت أننا بحاجة إلى شيء نابع من الواقع والتجربة. معركة خصمنا معنا قومية، فكيف تكون "أخوّة عربية يهودية" مع قوميين يبنون دولتهم على استباحة بلدي؟ عندما بدأت الحرب العالمية الثانية لم يتوجه ستالين إلى جماهير الاتحاد السوفياتي من أجل الدفاع عن الاشتراكية، وإنما من أجل الدفاع عن الوطن.

قبل عقد المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي في ١٩٥٧/٥/٢٩ إلى ١٩٥٧/٦/١، جرى نقاش ناضج بين الرفاق العرب فحواه: مَن نحن؟ ما هو المستقبل الذي نسعى له؟ واستقر الرأي على أن لنا "حق تقرير المصير حتى الانفصال." وأُدرج هذا الشعار في المادة التي قدمتها اللجنة المركزية للحزب إلى المؤتمر، أي أن هذا الشعار هو ما يتبنّاه الحزب. طبعاً: التعبير"حتى الانفصال" يحمل أبعاداً كبيرة: كيان مستقل له حدوده وكل ما للاستقلال من حقوق. اشتركت في ذلك المؤتمر وكان لي كلمة فيه.

قامت الصحافة العبرية بالإجماع بحملة محمومة ضد هذا القرار وضد الحزب، وانطلقت الحملة من "رئيس المؤسسة المركزية للاستخبارات والأمن" آنذاك إيسَر هرئيل الذي كتب فيما بعد عن ذلك في كتابه "التجسس السوفياتي: الشيوعية في أرض إسرائيل" (تل أبيب: منشورات يديعوت أحرونوت، ١٩٨٧)، ص ٢٣٦ وما بعدها.

كان القرار يعني أن في وسع العرب في هذا البلد الانفصال عن إسرائيل في كيان مستقل اعتماداً على قرار الأمم المتحدة، وقد

نظرت السلطة إلى الموقف الذي ينطوي عليه هذا القرار بقلق شديد وحاربته بكل عنف.

يقول إيسَر هرئيل في ذلك الكتاب: "لذلك حرصت، كما ذُكر، على أن أنقل المعلومات عن الحركة السرية القومية ـ العربية في داخل الحزب الشيوعي الإسرائيلي إلى الرفاق المركزيين في قيادة الحزب الشيوعي: موشيه سنيه وميكونس وماير فلنر. ذُهل هؤلاء، لكنهم لم يشكّوا في صدق المعلومات، وبذلوا جهداً كبيراً للقضاء على الانحراف وعلى الحركة السرية القومية العربية في قلب حزبهم."

بعد التحريض الهائج في الصحف مجتمعة، بدأت حملة الاعتقال الإداري في ليل الأول من أيار / مايو ١٩٥٨.

ونحن، ضحايا الاعتقال الإداري، تنقّلنا في السجون من الناصرة إلى الجلمة إلى يافا فالرملة فالدّامون، وقد ذكرت ذلك في فصل من كتابي "خميرة الرماد" (حيفا: مكتبة كل شيء، ٢٠٠٤)، ص ٨٧ وما بعدها.

وحدث الانقسام في صفوف الحزب في سنة ١٩٦٥ إلى حزبَين: "ميكونس"، ومؤيِّدوه احتفظوا بالاسم الموروث؛ "القائمة الشيوعية الجديدة" (ركح). وبعد أمد غير بعيد ذاب القسم الأول وبقي القسم الثاني الذي استعاد اسم الحزب.

**■ هل كان الشيوعيون اليهود المنتمون إلى الحزب الشيوعي العراقي، والذين هُجِّروا وهاجروا إلى فلسطين بالتزامن مع إقامة دولة إسرائيل وما بعد ذلك، ضد المشروع الصهيوني؟**

□ الشيوعيون العراقيون الذين هُجِّروا كانوا يعانون في العراق الاضطهاد الذي عانى جرّاءه الشيوعيون جميعاً هناك، وخصوصاً بعد إعدام قائد الحزب فهد، وحملات الملاحقة والبطش. وكثيرون منهم كانوا شباباً مثقفين، وقد اتصلوا فوراً بالحزب الشيوعي الإسرائيلي والتحقوا به.

كان منهم مَن عمل وأصبح محرراً في صحيفة "الاتحاد" مثل سمير مارد، كما أن عدداً منهم نشط في العمل في مجلة "الجديد"، إلاّ إن الفرصة أُتيحت لعدد منهم فحازوا بعثات للدراسة في الجامعات الإسرائيلية ثم في بريطانيا وأميركا، ونالوا ألقاباً علمية عالية، وتسلموا مناصب بارزة في كليات الأدب العربي في الجامعات. وظل جُلُّهم على علاقة برفاق الأمس من دون أن يبقوا في الإطار الحزبي.

إن تأييد الاتحاد السوفياتي قرار التقسيم في الأمم المتحدة أعطى الكيان الصهيوني شرعية، وكان الحزب الشيوعي الإسرائيلي سعى قبل ذلك لتحقيق هذا بحماسة، فأقام الصلات مع دول شرق أوروبا، وجلب السلاح من تشيكوسلوفاكيا، وجنّد كتائب محاربة من تلك البلاد، كما تعاون مع المنظمات التي كانت تجنّد للهجرة من تلك البلاد ومن دول أوروبية أُخرى.

لذلك كان الشيوعيون العراقيون كالآخرين يرون في إسرائيل كياناً شرعياً. أمّا دور الحزب في صفقة السلاح وجلب المتطوعين فأكّده شموئيل ميكونس السكرتير العام للحزب الشيوعي في المحكمة حين استجوب بن ـ غوريون ليؤكد كيف توجّه إليه ليرتب له أمر الخروج من البلد لجلب السلاح والمتطوعين. كما كان لهم دور في جلب المهاجرين من تلك البلاد، وكان بين مَن أرسلهم الحزب لجلب السلاح إلياهو جوجانسكي الذي تحطمت به الطائرة فوق أثينا وهو عائد إلى البلد.

هذا كله منشور في "الكتيّب" الذي أصدره الحزب بالعبرية (ولم يصدره بالعربية): "محاكمة صوت الشعب: قضية بن ـ غوريون" ("محاكمة قول هعام: بن ـ غوريون")، وفيه بروتوكول جلسات المحكمة التي اتُّهم فيها الحزب حين هاجم بن ـ غوريون على خطاب ألقاه في "مؤسسة الشبيبة المتعلمة" وهاجم فيه الاتحاد السوفياتي.

## في ظل النكبة

■ **عشت النكبة بكل عذاباتها، ما هي التفصيلات التي استوقفتك، وكيف تجددت مقاومتكم لسياسة إقصاء منهجي لشعب بكامله؟**

□ كنت في أثناء الحرب في الرينة، وقد أسهبت في الحديث عن كثير من الأمور في الكتاب الأول من سيرتي: "ظل الغيمة" (الناصرة: سلسلة الثقافة، ١٩٩٧).

قبل أيام من الاحتلال كانت كل حارة في القرية تجمع مَن فيها من الرجال الذين يملكون شيئاً من السلاح الذي اشتروه بقَطْع اللقمة عن أفواه أطفالهم، وبعضَ الرصاصات المعدودة التي اشتروها أيضاً من فم الجوع. لا إطار يجمع ولا تدريب، بل سمعت أحدهم يقول: هل تعتقد أننا بهذا السلاح نستطيع أن نحارب العدو؟ هذا هو الجهل المطبق، لكن حين ينتشر السلاح في مثل تلك الأوضاع، فإن عليك أن تحمي نفسك من الفوضى!

كان المنطلق الأساسي بالنسبة إليّ هو الصمود والحفاظ على وجودنا، ولذلك ناضلت ضد الهجرة. وقد حضر أصدقاء والدي من المسّاحين وصاروا يشجعونه على الهجرة معهم إلى الخليج، فقلت له: "وطننا هنا، والصهيونيون يريدون إخراجنا منه، وعليه، يجب أن نضحي ونحمل الراية. أنا ضد الرحيل، ولا أستطيع أن أمنعك، لكني وإخوتي لن نرحل، نحن ندعو إلى الصمود!" شعرت بعدم وجود سقف نحتمي به، إذ لا يوجد تنظيم للمجتمع. كنت أعلِّم في المدرسة الثانوية في الناصرة، وعندما جاء "جيش الإنقاذ" احتل المدرسة، ونُهبت خزانتي الملأى بالكتب الخاصة، وكذلك خزائن المعلمين الآخرين. كان الأجدر بهم أن يتركوا المدرسة لطلابها ومعلميها، وأن يحتلوا "المسكوبية"، العمارة التي احتلتها السلطة البريطانية وأخلتها حين "انتهى" الانتداب، وهي بناية كبيرة أقامها الروس المسكوب، ومن هناك اسمها، ففي تلك البناية أقامت إسرائيل سلطتها. كان وضع عناصر جيش الإنقاذ بائساً: متطوعون جرى جمعهم بناء على حماستهم، ومن دون إعداد عسكري أو سياسي. وقفنا عند مدخل الرينة لدى مرورهم إلى الناصرة في ست مركبات، ومعهم فوزي القاوقجي الذي نظر إلى مستعمرة "كفار هخورش" الموجودة فوق الناصرة، وهي كيبوتس قديم ومشرف على الناصرة، فسأل: لماذا أبقيتموها حتى الآن؟ قال واحد من الناصرة: "البركة فيكم والاعتماد عليكم يا سيدي." قام "جيش الإنقاذ" باعتقال الشيوعيين أعضاء عصبة

التحرر، لأنهم كانوا قد وافقوا على قرار التقسيم، لكن الشاعر عبد الرحيم محمود الضابط في ذلك الجيش، والذي كان صديقاً لصليبا خميس سكرتير العصبة في الناصرة، بل كان صديقاً لكثيرين من أعضاء العصبة، كما أنه نشر بعض قصائده في مجلة "الغد" المقدسية التي كانت منبر العصبة الثقافي، تدخّل لمصلحتهم. في ذلك النهار حضر الشاعر عبد الرحيم محاكمة الشيوعيين، فكفلهم وأُفرج عنهم، وبعدها ذهب إلى بلدة الشجرة حيث حارب واستشهد. وبعد أعوام حرصنا على بناء قبر للشهيد الشاعر في الناصرة، واستغرقنا البحث مدة كي نتأكد أي من القبور قبره. كما قمت ـ ضمن مشروعي لحفظ التراث ـ بجمع ما تيسّر من شعره في ديوان عنوانه "روحي على راحتي" مستوحى منه، إذ يقول:

سأحملُ روحي على راحتي
وأُلقي بها في مهاوي الرّدى
فإمّا حياة تسُرُّ الصديقَ
وإمّا مماتٌ يغيظُ العِدى

■ **كيف كانت علاقتكم بالعالم العربي، بالأحزاب وبالمثقفين اليساريين والمتنوّرين خارج فلسطين؟**

□ في الإطار الذي أعرفه، لم يكن ثمة علاقات مباشرة بيننا في تلك المرحلة. وأذكر حالتين كان لي بهما صلة: عندما سافرت لحضور مؤتمر الكُمسمول في سنة ١٩٥٤ وصلنا قبل وصول الوفد السوري، وكان المرافقون السوفيات قد أعدّوا لنا مكاناً مشتركاً في الفندق. بعد يومين وصلوا. رأيناهم في غرفة الطعام، فبادرتهم بالتحية لكنهم لم يردوا. قال لنا الرفاق السوفيات إنهم يرفضون أي صلة بنا. عندما انتهى المؤتمر سافرنا معاً في طائرة واحدة، ونزلنا في كييف حيث أخذنا المضيفون معاً إلى جولة في المدينة. كان المرشد يشرح باللغة الإنجليزية، فطلب أحد الإخوان السوريين أن أترجم لهم، فهم يستخدمون الفرنسية. لبّيت الطلب، وبعد حين سألتهم: لماذا المقاطعة؟ قال المسؤول فيهم: أيها الرفاق نحن نخشى من أن نُتّهم حين العودة بالاتصال بإسرائيليين، ففي موسكو سفارة سورية، ونخشى أن نكون مراقبين، ولذلك كانت المقاطعة.

أمّا الحالة الثانية فكانت في سنة ١٩٥٨ في "مؤتمر الدفاع عن حقوق الشبيبة العاملة" في فيينا، حين التقيت بوفد اشترك فيه رفاق من السودان ومن فلسطين ومن لبنان. فقد استقبلني الجميع بمحبة، وإذا برفيق سوداني يحفظ قصيدتي "عشرُ سنين" التي قلتها يوم حُكم في الأردن على فؤاد نصار سكرتير الحزب الشيوعي الأردني بالسجن عشرة أعوام. قال لي: هذه القصيدة اشتهرت ونُشرت في العديد من الصحف اليسارية وقرأ مطلعها:

عشرُ سنينْ؟!
وهل تحسبونْ
بِأنَّ الزمانْ
سيرخي العنانْ
لِحُكمِكُمُ أيها الظالمونْ
عشرَ سنينْ؟!

وكنا نتابع أخبار الإخوة هناك عبر صحافتهم التي كان بعض أعضاء البرلمان يحمله معه بعد عودته من لقاءات في مؤتمرات في الخارج.

وأذكر الطُّرفة التي رواها لي إميل حبيبي عندما سأله سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني مداعباً: "بَعِدْكو قاعدين تناضلوا؟" (مشيراً إلى صيغة الاستمرار في اللغة العامية عندنا: قاعد يركض، قاعد يمشي، وإلى الصورة الغريبة المضحكة: قاعد يناضل).

## مقاومة ثقافية

■ **مَن تصدى للهجوم العنيف تحت عنوان "أرض بلا شعب"؟**

□ كانت القوة المنظمة الوحيدة للذين بقوا في البلاد هي "عصبة التحرر الوطني" التي أخذت على عاتقها أن تبذل ما تستطيع لتهتم بشؤون العمال، فأعادت تنظيم "مؤتمر العمال العرب" الذي أُنشيء قبل النكبة، ونظمت تظاهرات ضد تشريد العائدين إلى بيوتهم الذين سمّتهم السلطة "متسللين"، وأعادت إصدار صحيفة "الاتحاد" الأسبوعية.

وكان لابد من مجابهة الهجوم السلطوي "الثقافي":

اجتمعنا في سنة ١٩٥١ لبحث إصدار مجلة ثقافية شهرية سميناها "الجديد"، وقد صدرت في البداية ملحقاً لصحيفة "الاتحاد" إلى أن حصلت على رخصة بعد عامَين.

وفي سنة ١٩٥٣ أصدرتُ مجلة "الغد" لتكون فضاء للشباب، ثم أنشأنا في مطلع الستينيات دار نشر سميناها "الكتب المختارة"، ومن الكتب التي أصدرناها: "الأيام" لطه حسين؛ "أرخص ليالي" ليوسف إدريس؛ "أبو العلاء المعري" لجبرا نقولا؛ "أوراق الزيتون" لمحمود درويش.

كانت الرؤية السائدة في هذا المناخ أن الثقافة والأدب هما كتيبة في المعركة، وأن الالتزام هو شعار الأديب والأدب، أمّا المذهب الأدبي فكان ما عُرف باسم "الواقعية الاشتراكية". وقد عُقدت ندوات ودراسات عن هذه المدرسة، جرى فيها التعريف بإنتاج مكسيم غوركي ومایاكوفسكي وشولوخوف وناظم حكمت وبابلو نيرودا ولوركا وغيرهم.

وكانت نظرتنا إلى التراث الأدبي العربي مستوحاة من هذه الرؤية، فكان البحث عن شاعر الصعاليك عروة بن الورد الذي يقسّم جسمه في جسوم كثيرة، وعن المتنبي شاعر العروبة:

إنما الناسُ بالملوكِ ولا
تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ

* * *

لا افتخارٌ إلاّ لمَن لا يُضام
مدركٍ أو محاربٍ لا ينامُ

وشعراء فلسطين: إبراهيم طوقان؛ عبد الرحيم محمود؛ أبو سلمى؛ حسن البحيري؛ وآخرين. وأدباء فلسطين: السكاكيني؛ إسعاف النشاشيبي؛ إسحاق الحسيني؛ وغيرهم.

وكان ردّنا على الشعار الصهيوني: "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، من تاريخ الأدب العربي: أن هذه الأرض كانت عامرة بشعب حيّ أنبت الشعراء البارزين قبل أكثر من ألف عام، وقد اقترن اسم كل شاعر باسم بلده، فكان كشاجم الرملي (ت. ٩٧١م)،

وابن القيسراني (ت. ١١٥٣م) الذي ولد في عكا وعاش في قيسارية إلى أن شردته حرب الفرنجة إلى دمشق حيث ظل يدعو إلى تحرير بلده، وأبو إسحاق الغزي (ت. ١١٣٠م)، والقاضي الفاضل العسقلاني (ت. ١٢٠٠م) وهو وزير صلاح الدين الأيوبي وصاحب مدرسة متميزة في النثر العربي علاوة على شاعريته.

وعرّفنا بالتميمي الطبيب صاحب كثير من المؤلفات في الطب وصناعة الأدوية، والمقدسي الجغرافي العَلَم الذي اعتبره أحد المستشرقين أنه "أكثر الجغرافيين العرب أصالة." ولا أريد أن أفيض هنا في هذا الباب الذي أردنا أن نعوّض فيه على طلابنا ما حرمهم منه برنامج التعليم الرسمي.

وكانت السلطة تشيع جو إرهاب صارم، وتفرض حرماناً على هذا النشاط الأدبي، فالويل لأي معلم أو موظف يسجَّل عليهما أنهما يقرآن صحفنا، أو يشاركان في أي نشاط محرَّم.

وكان الوصول إلى القرّاء يتم من خلال فِرَق تحمل الصحيفة أو المجلة إلى البيوت، فتقرع الأبواب، أو توصل الصحيفة عبر "مؤتَمَن".

■ **لكن كيف الوصول إلى مَن لا يقرأون، ونسبة هؤلاء عالية؟**

□ كان الجواب مبدعاً وجريئاً: نقيم مهرجانات شعرية في القرى والمدن؛ نتحدى الحكم العسكري؛ نسافر من دون تصريح؛ وإن لم تُتَح لنا قاعة فليكن المهرجان تحت قبة السماء وفي ذلك تجاوز لقانون آخر. أمّا الثمن فندفعه.

وكنا ندعو الشعراء المحرجين إلى المشاركة في هذه المهرجانات، وكان بعضهم يشارك بقراءة شيء من الغزل أو الوصف، لكنهم انقطعوا بعد أن جرى توبيخهم من طرف السلطات. وكان حساب سكرتير "جمعية الشبان المسيحية" في الناصرة عسيراً، إذ شارك في المهرجان الشعري الذي عُقد في منزله، والذي تم فيه تجاوز الخطوط الحمراء بشعر وطني، بل إن أحدهم تخطى الأمر كثيراً حين ألقى قصيدة يسخر فيها من بن ـ غوريون الذي اضطر إلى الانسحاب من سيناء عنوانها "قد لفّ ذيله وانسحبْ".

أمّا في كفر ياسيف فلم يتسع "النادي الثقافي" للجمهور الذي جاء يحمل الكراسي الصغيرة المنخفضة، وانطلق الميكروفون يملأ الليل بصوت الشاعر راشد حسين ينشد:

اليوم جئت وكلنا سجناء
فمتى أجيء وكلنا طلقاء

وكان على الشعر أن يصل إلى الناس مباشرة ليؤدي الرسالة، فكان مباشراً. وكان على الشعراء المتمردين أن يحتملوا السجن أو النفي أو الإقامة الجبرية.

وكان لي زاوية أسبوعية في جريدة "الاتحاد"، كل يوم جمعة، بعنوان "وحي الأيام" أكتب فيها شعراً وخواطر في الأحداث. وعندما سُجنت في سنة ١٩٥٨ تطوع عدد من الشعراء لتستمر الزاوية، فكتبوا بأسماء مستعارة شعراً بروح تلك الزاوية، وظل وحي الأيام حياً ينبض.

ولا تكاد تجد من الشعراء الملتزمين مَن لم يدفع الثمن المشرِّف للسجن، مثل: توفيق زيّاد؛ محمود درويش؛ سميح القاسم؛ شفيق حبيب؛ وآخرين.

## جيل جديد من الكتاب

كانت إحدى المقولات في الاجتماع التأسيسي لمجلة "الجديد": "نحن بحاجة إلى كتّاب"، وطبعاً سيكون هؤلاء من الجيل الجديد.

حملت مجلتَي "الجديد" و"الغد" هذه الرسالة، ومَن يراجع أعدادهما في تلك الفترة يجد كثيراً من التشجيع للأقلام الواعدة التي كتبت القصائد والقصص والخواطر. كما نشرنا في أحد الأعداد مقابلة مع محمود درويش وسالم جبران، الطالبَين آنذاك في مدرسة كفر ياسيف الثانوية، وفيها إجابات عن رؤيتهما إلى الأدب، وعن إنتاجهما ورأيهما في المهرجانات الشعرية التي أخذا يشاركان فيها. وفي هذه المقابلة برزت شخصية محمود القوية، ورؤيته الحاذقة الواعدة.

وذكرت في سيرتي الذاتية ("خميرة الرماد"، الجزء الثالث، ص ٤٤ ـ ٥٠) كيف جاء إلى بيتي راشد حسين كي يراجع معي ديوانه "مع الفجر" الجاهز للطبع، وكيف طلب محمود درويش مني مراجعة ديوانه "أوراق الزيتون" وكتابة تظهير للكتاب، فكان له ما أراد. وذكرت في مكان آخر كيف جاء سميح القاسم إلى الرينة ليراني، وكان يحمل مجموعته الشعرية "مواكب الشمس"، وقد كتبت له عنوان الديوان بخطّي، وهو ما فعلته بعناوين مجموعات محمود درويش التي نشرها في فلسطين.

وكنا نهتم في مجلة "الجديد" بتشجيع الأقلام الفتية. وعندما تسلّم مني محمود درويش تحرير المجلة صار هو مَن يكتب الملاحظات للكتّاب والقراء، ويعرض الأحداث الثقافية في زاوية عنوانها "شهريات" يعلّق فيها بصورة عامة على حصاد الشهر الأدبي أو الثقافي. وكان الميراث الشعري الفلسطيني ثرياً، أمّا القصة والرواية فكانت في عهد المراهقة. كان إميل حبيبي مشغولاً بالعمل السياسي والكتابة الصحافية إلى أن حان الوقت ليتفرغ للأدب، وبدأت تظهر القصص القصيرة في "الجديد" و"الغد"، بينما بدأت الرواية تظهر في تجارب تطمح إلى النضوج. وبدأ يظهر النقد الأدبي بشكل منتظم في مجلة "الجديد" في باب افتتحه الشاعر عيسى لوباني الذي كان يراجع الأدب المنشور في مختلف المواقع ويعلق عليه، كما كان الدكتور إميل توما يعالج النقد بين حين وحين.

هذه ملاحظات على مسيرة الأدب عندنا حتى أواسط الستينيات حين وصلنا إلى انطلاقة تجديدية في شتى المجالات الأدبية وفي المسرح وأدب الأطفال، ومجال الحديث عن ذلك واسع يقتضي جهداً أوسع من الدراسة والبحث. ■